الفصل الثامن

الأديان فى الحبشة

(١) المسيحية :

معظم سكان الحبشة الأصلية[١] مسيحيون ، كانوا يهوداً حتى سنة ٣٢٠ ميلادية ، فجاءهم نفر من المسيحيين كانوا فى سفينة تسير فى البحر الأحمر . فارتطمت باحدى الشعاب المرجانية فغرقت ، ولكن كتب الله لهم السلامة . ولما مثلوا أمام النجاشى تأثر بمظهرهم ، ومخبرهم ، فتنصر بتأثيرهم ، هو وجم غفير من حاشيته ، وكبراء دولته .

ورجع أحدهم إلى الاسكندرية ، وقص على بطريقها (البطريرك) قصتهم ، وأنهى إليه رغبتهم فى تنصير أهل الحبشة جميعاً ، وهون عليه الأمر ؛ فعينه مطراناً للحبشة فقفل إليها راجعاً . وأبلى ، هو ورفقاؤه بلاء حسناً فى تنصير الحبشان .

ومنذ ذلك العهد أصبح تعيين أسقف مصرى مطراناً للحبشة تقليداً دينياً ، وعرفاً متبعاً يحافظ عليهما الحبشان ويحرصون على استمرارهما . ولقد بلغ من حرصهم على ذلك أن طلبوا النص عليه فى أحد بنود المعاهدة التى أبرمت أخيراً بين مصر والحبشة وبريطانيا العظمى .

وإن لهؤلاء المطارنة المصريين منزلة كبيرة عند الحبشان ، فهم الذين يتوجون أباطرة الحبشة . وهم الذين يحلون الناس (الحبشان) من بيعتهم لهم إذا دعى الأمر إلى ذلك . وهم الذين يعينون القسيسين . ولقد بلغ من حبهم لهم ، واحترامهم إياهم ، أنه إذا مر أحدهم على قرية أو فى إقليم من الأقاليم الحبشية ، خرج الناس إلى الطريق

---

(١) أى الجهات الوسطى الشمالية من إمبراطورية الحبشة الحالية التى تضم بلاد الجلا ، والدناكل وجزءاً كبيراً من بلاد الصومال .

التى يمر بها ، وازدحموا على جانبيها ، وما يكادون يشاهدون طلعته ، حتى يسجدوا له ويكفروا ، ويعفروا وجوههم فى التراب أو الطين ، إجلالا له واحتراماً .

ولكن يظهر أن ما تحمله الحبشان فى أثناء احتلال الإيطاليين بلادهم من اضطهاد وعنت ؛ وظلم وكبت ، وقلب للأوضاع المرعية عندهم ، زاد من كرههم للأجنب . وأحيا فى نفوسهم النزعة إلى الاستقلال الدينى ، استقلالا لا يخرجهم من حظيرة الكنيسة المصرية التى ظلت ترعاهم ستة عشر قرناً ونيفاً (٣٣٠م — ١٩٣٩) وذلك بأن يستبدلون مطراناً حبشياً بالمطران المصرى .

ولقد شاع هذا الشعور فى نفوس الحبشان ، وتحدثوا به ، وتجادلوا فيه ، وجرى على لسان شاعرهم كيداناً حيث يقول :

« الأقباط مغتبطون . متى يجتمعون ليقرروا ؟

إنهم لا يصنعون شيئاً ، ففخرهم بالاسم فقط .

فى بلادنا ألقاب عظيمة لرجال الدين .

هى ألقاب مطارنة ، ليست لصعاليك .

لا حرية لهم فى بلادهم كغيرهم من رجال الدين !

. . . . . .

فالسوريون والأرمن يختارون ويرسمون لهم ،

بطريركا ومطراناً دون أن يكون لهم ملك .

لا يوجد فى العالم جنس آخر غير الأثيوبيين ،

لايختارون ولا يرسمون من جنسهم مطرانا [1] » .

وربما كان من أسباب تقوية الحركة الانفصالية عند الحبشان تعيين الإيطاليين مطراناً حبشياً فى أثناء احتلالهم .

. . . . . .

(١) ترجمة الأستاذ مراد كامل : من مقال له فى الكاتب المصرى .

ويزعم بعض الحبشان أن المسيحية دخلت الحبشة قبل سنة ٣٣٠ م بمدة كبيرة ، وبخاصة فى شماليها الذى ظهرت فيه بوادرها فى سنة ٣٠ م ولكن انتشارها كان بطيئاً.

ولا يزال الحبشان المسيحيون يتمسكون بكثير من عادات اليهود ، وشعائرهم الدينية . وتشبه كنائسهم بيع اليهود فى شكلها الخارجي ، وفى نظامها الداخلى .

ويكثر القسيسون والرهبان والشماسون[1] فى الحبشة كثرة عظيمة . ويقدرهم البعض بخمس سكانها المسيحيين . وهم بوجه عام جهال أميون ، لا يتصونون عن إتيان المنكر ، ولا يتعففون عن ارتكاب الخطيئات اعتقاداً منهم أن الله يغفر ذنوبهم إذا ما تابوا ، وقاموا بفروض دينية معروفة عندهم .

وهم معفون من الجندية ، ولا يعملون عملا منتجاً ، ولكنهم طفيليون[2] ، يعيشون على ما يبتزونه من الفلاحين والصناع . وهم فوق أنهم الرؤساء الروحانيون ، المدرسون والقضاة وضباط المباحث فى الحلات والقرى .

وتكثر الكنائس فى الحبشة كثرة ملاحظة . ويزعم بعض الرحالين أن عددها ١٥٠٠٠ كنيسة ، وجلها أخصاص حقيرة تقام فى الغالب على رءوس التلال . وهنالك بعض الكنائس الكبيرة أشهرها كنيسة القديس جورج فى أديس أبابا وكنائس لا ليبالا (Lalibala) المسماة بيت مقدس الحبشة . وهى كنائس فريدة ، منقورة فى الصخر الأصم ، شديدة الشبه بخزانة فرعون فى بلاد العرب . إذا رأيتها حسبتها بناء مشمخراً من الحجر المرصوص، أو الأسمنت المسلح . تحوى كل كنيسة منها ، وعددها

(١) لايحتاج رسم الشماسين إلى مؤهلات ما ، ويكفى أن يدفع من يريد أن يكون شماساً قدراً ضئيلا ، ولقد روى بعض الرحالين مشهداً فى أثناء تجواله آثرنا أن ننقله بألفاظه قال :

"A number of men and children present themselves at a distance and there stand from humility, not having to approach him(المطران).He then asks who they are, and they tell him they want to be deacons. On this with a small iron cross in his hand after making two or three signs, he blows with his mouth twice or thrice upon them saying "Let them be deacons."

(2) . . . "parasites, and parasites they are, for they serve no useful purpose and exist on the taxes from the people working on the land",

إحدى عشرة كنيسة، عشرات الغرف والردهات. وهى ذات أبواب ونوافذ دقيقة الصنع.

ويحج هذه الكنائس[١] الناس للتبرك . وينسل إليها المرضى الذين يبغون فوق البركة الشفاء .

ومعظم الكنائس الحبشية الأخرى مظلمة فى الداخل . ليس بها نوافذ ، ولكن بها أبواباً كثيرة يخصص كل منها لفئة خاصة من الناس . فباب القسيسين فى الجهة الشرقية . وباب الرجال فى الجهة الشمالية . وباب النساء فى الجهة الجنوبية . ولقد لحظ أحد السائحين صورة الشيطان منقوشة فوق باب إحدى الكنائس ، فسأل قَسِّيساً عن سبب نقشها فى هذا المكان ، فأجابه بأنه نقشت صورته فى هذا المكان لتذكر الرجال عند دخولهم الكنيسة بخبث النساء ومكرهن ، وبأفعالهن القبيحة التى تشبه أفعال الشياطين .

وأجراس معظم الكنائس الحبشية قطع من الحجر يضرب بعضها ببعض فتحدث صوتاً يسمع عن بعد كبير .

(ب) المسلمون :

وفى الحبشة مسلمون كثيرون ، منتشرون فى جل أنحائها . ويكونون الأكثرية الساحقة فى الشرق[٢] والجنوب الشرقى[٣] والجنوب[٤] ، وفى الجهات الشمالية الغربية القصوى[٥] .

وأول من حمل الإسلام إلى الحبشة مهاجرو المسلمين الذين لجئوا إليها فراراً من كفار قريش ، فأحسن النجاشى وفادتهم ، وأكرم مثواهم . ومنذ ذلك الحين

---

(١) يعزى نحت هذه الكنائس إلى الملك لاليبالا (القرن الثالث عشر) ، ويزعم الحبشان أنه أوحى إليه بموقعها وبرسومها ، فاستقدم لذلك نحو ٥٠٠ نحات من الاسكندرية وبيت المقدس فأتموا نحت إحدى عشرة كنيسة أكبرها وأجلها وأدقها صنعاً كنيسة مدينا عالم أى مخلص العالم .

(٢) حيث يسكن الدناكل .
(٣) حيث تمتد بلاد الصومال إلى داخل حدود الحبشة .
(٤) حيث يقطن الجلا .
(٥) حيث تمتد بطون من القبائل السودانية .

أخذ الإسلام ينتشر فيها انتشاراً بطيئاً ، وذلك بوساطة تجار العرب المسلمين ، حتى القرن الرابع عشر ، فوفد إلى الحبشة قوم من قريش ، اختلف فى أصلهم . فقيل « أنهم من بنى عبد الدار ، وقيل من بنى هاشم ، فنزلوا فى أرض جبرت ، وهى من أراضى الزيلع . وأقاموا بمدينة أوفات « وعرف جماعة منهم بالخير ، واشتهروا بالصلاح إلى أن كان منهم عمر الذى كان يلقبه قومه بالشمع ، ولاّه الحطى (ملك أمهره) مدينة أوفات وأعمالها . فحكم بها مدة طويلة . وصارت له شوكة قوية . وشكرت سيرته حتى مات ، وترك أربعة أولاد أو خمسة ملكوا أوفات ، من بعده واحداً بعد آخر .. .. وخلفهم أحفاده إلى أن تولاها حفيده حق الدين ، وكان شديد التعصب لدينه ، فأكره كثيرين من الحبشان المسيحيين على اعتناق الإسلام . ثم حارب سلطان أمهرة سيف أرعد ، وشن الغارة على بلاده .. .. .. وأسلم على يد حفيده محمد سعد الدين عشرة آلاف حبشى أو يزيد ، وأسلم على يد أخيه أحمد بشر لا يحصى عددهم . وخاض أخوه غمار حرب دينية ، فأسلم على يديه خلق كثير[1] . »

وفى القرن السادس عشر قام بعض سلاطين المسلمين فى الصومال بغزوات عدة أسلم فى أثنائها من الحبشان خلق كثير . ففى سنة ١٥٣٨ ميلادية أغار سلطان زيلع على الحبشة ، وأخضع كثيراً من أرضها ، وخرب مدينة أكسوم .

وأكبر غزوات المسلمين فى الحبشة هى التى قام بها الأمير الصومالى أحمد بن محمد الأجرانى [2] الذى اخترق الحبشة غازياً من حدودها الجنوبية إلى أقصى حدودها الشمالية ؛ واستشهد فى إحدى الوقائع . وثأر له الأمير نور الدين الذى خلفه . وأسلم فى أثناء هذه الغزوات عدد كبير من الحبشان .

ولقد استنجد الحبشان بالبرتغاليين ، إخوانهم فى الدين فخفوا لنجدتهم ، وصدوا

---

(١) المقريزى : الإلمام .

(٢) ويلقب بالأشول . وكان قائداً ماهراً ، وسياساً قديراً ، ترقى من جندى إلى مرتبة القيادة والإمارة ، فقد ولى إمارة هرر .

جيوش المسلمين ، بعد أن أصيبوا (البرتغاليون) بهزائم عدة (سنة ١٥٤٣ م) وبذلك انتهى عصر هذه الحروب .

ويبلغ المسلمون الذين ينتمون إلى أصل حبشي ألف ألف من الأنفس ، أو يزيدون .

وهم بشهادة السائحين الأوروبيين والأمريكيين ، أحسن ملبساً ، وأنظف جسما ، وأصدق قولا ، وأيمن نقيبة من إخوانهم المسيحيين .

وللمسلمين الحبشان أئمة ، وعلماء ، وفقهاء ، ومدارس خاصة بهم يتعلم فيها أبناؤهم ، ومساجد يعبدون الله فيها .

ويشتغل معظمهم بالتجارة . ويتولى كثير منهم مناصب عالية فى الدولة ، ويهيمنون بصفة خاصة على مصلحة الجمارك .

ولا يزال الإسلام ينتشر فى الحبشة ، وبخاصة بين سكان الأقاليم التى أخضعتها الحبشة فى أوائل القرن العشرين سواء أكانوا وثنيين أم مسيحيين[1] .

ولقد بلغت سرعة انتشار الإسلام فى هذه الأقاليم درجة أقضت مضاجع كثير من المبعوثين المسيحيين (المبشرين) فى الحبشة الذين أوجسوا خيفة من أن يصبح يوماً دين الأكثرية ، ليس فى هذه الجهات فحسب بل فى الحبشة جميعها[2] .

---

(١) وفى ذلك يقول أحد الرحالين الغربيين . . . ولم أر حتى الآن أى أثر لنجاح البعوث التبشيرية الغربية ، ولكن على النقيض من ذلك ، توجد دلائل قوية تثبت أن الإسلام ينتشر بين سكان تلك الجهات انتشاره فى جهات أفريقية الأخرى ، ويؤكد هذا القول كثير من الكتاب الأمريكيين والسويديين والفرنسيين ، لأنه معروف للجميع أن كل مهاجر مسلم مبشر بدينه فى كل بلد يهاجر إليها ...

(٢) وفى ذلك يقول الرحالة نفسه ما أثرنا نقله من غير ترجمته :

. . . "It would be a remarkable happening, if the ancient Abyssinian Church, that has resisted the attacks on its faith, of so violent a character for so many years, should succumb to the peaceful penetration of Moslem teaching at his stage of its history."

وفى الحبشة قبائل مسلمة كثيرة[١]. ينتسب معظمهم إلى أصل عربى[٢]. ولقد كتب عنهم صاحب[٣] كتاب حاضر الحبشة ومستقبلها (ص١١٨ — ١١٩) مايلى :

« امتازوا بقوة البنيـة ، والصبر على المكاره ، واحتمال الخطوب . وأفرادهم أذكياء ، وذوو احتيال فى مناهضة الأعداء عجيب ، و بسالة فى القتال أعجب . يتخلقون بأخلاق العرب ، فيرعون الجار ، و يضيفون الغريب ، و يعرفون مسالك الطرق . ولكل قبيلة عميد يلقب بالسلطان » .

وأشهر هذه القبائل هى : —

١ — جبرت :

وهى قبيلة تسكن فى المقاطعة المسماة باسمها فى شاوة ، و ينتمى أفرادها إلى قريش ، وهى أرقى القبائل الحبشية المسلمة وأرجحها عقلا . و يميلون إلى التفقـه فى الدين ، وتحصيل العلم و يتفانون فى حب دينهم . ومنهم المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور .

٢ — قبيلة مرعى الشريف :

و يدعى أفرادها أنهم أشراف وافدون على الحبشة .

٣ — الدنبلا :

تقطن فى مقاطعة سنهيت ، وهم حضريون يسكنون القرى ، و يحترفون الزراعة ، والحياكة ، و بعض الصناعات الأولية الأخرى . وهم كثير ، يبلغ عددهم نحو مائتى ألف نفس و يدعى بعضهم أنهم أشراف .

---

(١) يقدرهم بعضهم بنحو مائة قبيلة .

(٢) لايأبه لهذه النسبة أحد لأنها فى حاجة إلى تحقيق .

(٣) الأستاذ رمزى تادرس وهو قبطى مكث فى الحبشة مدة طويلة .

٤ — الدناكل :

الدناكل أو الأفار يسكنون السهول المنخفضة المحلة المسماة باسمهم[١] وهى تكون مثلثاً شمالى بلاد الصومال ، وشرقى الهضبة الحبشية ، وتمتد إلى البحر الأحمر . وتسكن بينهم ، أو هى منهم ، قبيلة مرعى الشريف التى تقدم ذكرها .

وهم بدو من أصل حامى ، ينتجعون الكلأ بأنعامهم من أبقر و إبل وأغنام .

ويتكلم الدناكل لغة حامية ، شديدة الشبه بلغة الصومال ، ولا غرو فالصومال والدناكل من أرومة واحدة .

فتى من الدناكل

والأفارى نحيف الجسم ، رشيق القوام ، متوسط الطول[٢] ، جميل الوجه ، مهذب الملامح ، على الرغم من شدة سواد جلده . وهم طبقتان :

(ا) طبقة الأسيمارا أو الحمر[٣] ، وهم أشراف البلاد المسيطرون على شئونها ، وأصحاب السلطة والجاه .

---

(١) ويطلق عليها سهل السمهر أيضاً ، وربما يكون مشتقاً من اسم طبقة الأشراف الأسيمارا .

(٢) يبلغ متوسط طول الأفارى ١٦٠ سم . (٣) لعلها السمر .

(ب) طبقة الأدوميرا ، أو البيض ، وهم الطبقة السفلى أو المحكومون.

على أن الذين زاروا بلاد الدناكل ، وعرفوا أهلها ، لا يرون فارقاً فى اللون بين السمر والبيض . وقد يكون السبب فى إطلاق لفظتى السمر والبيض على صنف واحد من الناس تعرض طبقة البيض إلى غزو السمر . و يغلب على الظن أنهما من عنصر واحد ، هبطا من الهضبة الحبشية فى موجتين متتالتين غمرت إحداهما الأخرى .

والدناكل أجلاف مخشوشنون ، جلهم حفاة ، عراة الأكتاف ، وكلهم بهمة ، وكلهم مقدام جسور . يهجم أحدهم على الأسد ، وليس معه إلا رمحه ، فيصرعه بطعنة نجلاء . والرمح ألزم لهم من قناة الراعى ، وعصا الأعمى . ومأربه الأول فى الرمح الاعتماد عليه واقفاً ، فيستطيع أن يرفع قدمه اليسرى إلى أعلى فخذه الأيمن و يمضى الساعات على هذه الحال ، كما يفعل طائر الشروش .

وذلك المنظر من المناظر المألوفة التى يراها المجتال فى بلادهم [1]

ومن العادات الوحشية المرعية عند بعض قبائلهم أنهم لا يسمحون لفتيانهم بالزواج إلا إذا أثبتوا رجولتهم وشجاعتهم بقتل شخص أجنبى ؛ وهم يعدون الحبشان أجانب يبغضونهم ، و يحتقرونهم ، ولا يعترفون بسلطانهم عليهم .

ونساء الدناكل حرات طليقات ، يضطلعن بأعباء الحياة ، و يشاركن الرجال فى أعمالهم ، فيرعين الإبل والأغنام ، و يرشدن القوافل و يقاتلن وحدهن من تحدثه نفسه بمهاجمتهن . ومنهن الصائدات القانصات .

---

(١) الأستاذ مراد كامل : عامان فى الحبشة .

الصوماليون [١]

الصومال كلمة لا يعرف أصلها الصوماليون ، ويرغبون عن إطلاقها على أنفسهم ويرجعها بعض العارفين إلى صو — مال وهما كلمتان معناهما فى اللغة الصومالية : اذهب وأت بلبن . والصوماليون معروفون بإكرام الضيف . واللبن طعامهم الأول المفضل . واسمه لذلك أول ما يسمعه الغريب الطارق .

ويقسم الصوماليون أنفسهم ثلاثة أقسام :

(١) القسم الأول ويسمى الأشا ، أى الخلص ، وينتمى أفراد هذا الفريق إلى بعض أشراف العرب [٢] الذين هجروا أوطانهم بسبب الفتن والثورات ،

---

(١) فى هذا الفصل لانكتب عن صومال الحبشة فقط ، ولكننا نكتب عن الصوماليين جميعاً والذين يسكنون القرن الشرقى ، ويفصلهم عن الجلا ، خط ممتد من خليج تاجورا إلى نهر الجب .

(٢) ليس هؤلاء الأشراف الذين يحرص أشا الصومال على الانتساب إليهم أول من هبط من العرب سواحل أرضهم ، فما لاريب فيه أن جماعات عدة من تجار العرب وصلوا إليها ، وأسسوا فى عهد البطالمة « بل وفى أزمان سابقة ، مراكز تجارية مهمة بالشاطىء الأفريقى الشرقى ، وفيما بلى خليج عدن بالبلدان التى كانت تحت حكم الملك مفرتيس ، وأن ثغر موسيلون الكائن فى الشمال الغربى من رأس جردفون كان يزاحم ثغور حضرموت » المسيوجيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية إلخ ص ٤٤

وقد ضعفت صلة العرب بالصومال ، وبإفريقية الشرقية فى عهد الرومان وفى عهد غلبة الحبشة على اليمن ، ولكنها رجعت فقويت كرة أخرى عقب طرد الحبشان منها ، فقد استردوا مركزهم التجارى ، فكانت سفنهم تنقل البضاعة إلى سقطرة ، وسواحل بلاد عادل وغيرها من سواحل إفريقية الشرقية ولكن لم يكن للعرب إلى ذلك الحين بتلك السواحل سوى المراكز التجارية التى تقدم ذكرها ، لأنهم لم يكونوا قد أسسوا بعد مراكز سياسية ذات هيئات نظامية خاضعة للقوانين ، ومدبرة الأمور بإدارة ثابتة .

ولم تصبغ حركتهم ، فى تلك الجهات ، بصبغة استعمار ، أو فتوح ، حتى القرن الأول الهجرى ، الذى حدثت فى أثنائه أحداث عظام ، واندلعت فى إبانه الفتن والحروب بين المسلمين ، فهجر كثير من أشراف العرب أوطانهم ، وهبطوا ساحل إفريقية الشرقى ، واتخذوه وطنا ثانيا لهم . !

ويؤخذ من أقوال المؤرخين أن سلالة زيد كانوا أول من استوطن تلك السواحل من الأشراف وعمروا بها المدن .

التى حدثت فى فجر الإسلام وضحاه ، وكادت تقوض بنيانه ، وتهدم أركانه ، لولا رحمة من الله .

والأشا أحسن الصوماليين وجوها ، وأقلهم سمرة ، وأعرقهم إسلاما . ويسكنون الصومالين البريطانى والإيطالى .

وعلى الرغم من أصل هذا الفريق العربى ، فإنهم لا يتخاطبون باللغة العربية ، ولا يحسنون الكلام بها حين يستعملونها فى بعض الشئون الدينية .

٢ — القسم الثانى ، ويسمون هاوية[1] . ولا يعدهم القسم الأول خُلَّصا لغلبة الدم الحامى واللمحات الحاميـة عليهم . وهم لذلك أقل تأثراً بالدم العربى ، وبالثقافة العربية . وقد كان قسم كبير منهم إلى عهد قريب ، وثنيين ، يصـدقون للسحرة ، ويأتمون بالكهان ، ولكنهم الآن مسلمون ، مشهورون بالتعصب لدينهم ، وبسهولة الانقياد لمشايخ الطرق الصوفية ، المنتشرة انتشاراً عظيما بينهم .

= وجاء بعد الزيود جماعات أخرى من العرب ، فى أزمان مختلفة ، أهمها وأبقاها أثراً فى تلك البلاد، من قدم منهم من الإحساء، ومن جهات جزيرة العرب الأخرى ، المطلة على الخليج الفارسى.

ولقد ذكر مؤرخ برتغالى أن عدداً كبيراً من العرب فروا من جور سلطان الإحساء ، فركبوا البحر ، وساروا فى ثلاث سفن تحت قيادة إخوة سبعة وهبطوا الشاطىء الأفريقى .

« وكانت مقدشو ، أول مدينة تأسست وقتئذ ، ثم تلتها مدينة بروة ، وهى التى كانت فى عهد احتلال البرتغاليين جمهورية تحت سيادة اثنى عشر شيخاً ، فصارت مقدشو مملكة قوية ، ذات شوكة ونفوذ على عربان السواحل » (جيان ص ٧١) .

ولقد غلب هؤلاء العرب القادمون من سواحل خليج فارس الزيود على أمرهم ، واضطروهم إلى الهجرة إلى داخل القارة، وهناك اختلطوا بأهلها الوثنيين، وتزوجوا منهم، وامتزج بذلك الدم العربى بالدم الزنجى ، ونتج عن هذا الامتزاج «أمة خليط من العرب والزنج، متوسطة بين الاثنين، سواء أكان ذلك من جهة العنصر والعقيدة ، أم من جهة البلاد التى احتلوها، والتى كانت متاخمة من الجهة الشرقية لأراضى المسلمين أما من جهة المغرب فمتاخمة لأراضى أبناء تلك البلاد فكان هؤلاء المختلطون من سماهم العرب بدواً . . . (جيان ص٧١ — ٨٥) .

(١) « من أهم قبائل الهاوية قبيلة الأجران التى تسكن بين نهر الجب والبلاد المعروفة باسم شبلة وقد اتصلت قبيلة الأجران بالزيديين الذين تقدم ذكرهم ، ولحمت أنسابها بأنسابهم. ومن قبيلة الأجران السلطان محمد الأجرانى مدوخ الحبشة » .

ويزعم الأشا أن الهاوية من نسل الجلا أسلافهم على أن كثيراً من الثقاة يرون أن الفرق بين الأشا والهاوية — إذا كان هناك فرق بينهما ضئيل وضئيل جداً فى الملامح واللون .

وتسكن قبائل الهاوية نجد أو جادين ، بين نهر وب شبيلى ونهر نوجال ، وهم لذلك أكثر الصوماليين اتصالا بالجلا ، وأشدهم تأثراً بهم .

٣ — القسم الثالث ويسمون الرهانوين . ويسكنون غربى الهاوية أى حول نهر الجب ، وفيما بينه وبين نهر طانة . وهم أكثر القبائل الصومالية تأثراً بالزنج ، أى سكان إفريقية الأصليين ، فى ملامحهم وثقافتهم ، وذلك لجوارهم لهم ، واتصالهم بهم .

وعلى الرغم من تباين الدماء التى امتزجت بعضها ببعض ، فأنتجت الصاماليين . وعلى الرغم من اختلاف مقادير أنواعها المختلفة ، فقد نشأ فى الصومال نوع من البشر له طابع خاص ، يميزه عن سائر الأنواع ، وذو لمحات خاصة تفرقة حتى عن جيرانه الأقربين .

والصومالى بوجه عام فارع الطول ، نحيف ، حسن القامة ، كامل النمو ، ذو جبهة بارزة ، مستديرة ، وعينين نجلاوين ، غائرتين ، وأنف إغريقى ، مستقيم أقنى ، وفم منتظم ، وشفتين غير غليظتين ؛ ولكن شعره جعد ، صوفى كشعر الزنوج . ويتدرج لونه من الأسمر الفاتح إلى الأسمر الداكن .

وهو خفيف ، سريع الحركة كالغزال ، شديد البأس ، قوى الشكيمة ، يكبر الشجاعة والإقدام ، والجود والكرم .

ومن قصصهم التى تبين عن أخلاقهم ، وتفصح عن بعض صفاتهم القصة الآتية :

زعموا أنه كان لأحد سراة الصوماليين وشيوخهم ابنة بارعة فى الجمال ، ذات حسن ودلال ، وقد واعتدال . فأقسم بالله العظيم أنه يقتل أول رجل يطلب يدها . وكان رجلا أيداً ، قوياً ، ماهراً فى استعمال الخنجر والحربة .

وذاع صيت ابنته ، وكثر عشاقها ، ولكن لم يجسر أحد منهم على طلبها منه .

وكان لهذا الشيخ قطعان كثيرة من الماشية والأغنام ، وفى خدمته مئات من الرعاة . وكان من عادته أن يركب كل صباح فرساً فارهاً له ، ويسوق مواشيه وأغنامه إلى المرعى .

ويتخلف الرعاة فى الحى ، ليتناولوا غـداءهم ، ثم يلحقون به فى نحو السـاعة الثامنة صباحاً ، فراقبه أحـد عشاق ابنته ، فرآه يخرج إلى المرعى ، وحيداً أعزل ، فاعترض سبيله ذات صباح ، وهو راجع .

هيئات الصومال

فسأله الشيخ ماباله ؟ وماذا يريد ؟

فأجابه الفتى « أريد الزواج من ابنتك .

فقال له الشيخ ، وهو محنق : ألم تسمع أيها الفتى خبر قسمى ؟

أغرب عن وجهى . ولاتسع إلى حتفك بظلفك .

فقال له الفتى : « إننى لا أرهب الموت ، ولا أخاف الردى ، فلا تطمع فى أن أخلى سبيلك قبل أن تجيبنى إلى طلبى .

فأرغى الشيخ وأزبد ، وهدد الفتى ، وتوعده بالموت ، ولكن الفتى لم ينثنى عن عزمه . فلم يرى الشيخ بداً من أن يذعن له . وقال له «فليكن أيها الفتى ماتريد ! فهيا بنا إلى المنزل لنتفاوض فى أمر الزواج .

وكان الشيخ يضمر السوء للفتى ، وينوى قتله حالما تصل يده إلى خنجره ! لأنه حلف أمام ملأ من قومه ، وهو الرجل الصالح ! فكيف تحنث يمينه ، ولكن الشيخ رجع لنفسه فسألها ! لماذا أقدم هذا الفتى على هذا العمل الجرىء ، والأمر الجسيم ، وهو يعلم أنه قد يلقى حتفه ! ولم أحجم غيره من الفتيان ؟ فلا ريب فى أنه شجاع ذو جنان ثابت ، وقلب رابط ، ولامشاحة فى أنهم رعاديد جبناء .

فسأله الشيخ وهو يحاوره « لماذا أقدمت على مثل هذا الأمر الخطير ؟ !

فقال الفتى : « إعلم أيها الشيخ إنى معروف بين قومى بخصال ثلاث :

الخصلة الأولى أنى لا أخشى إنساناً .

الخصلة الثانية أنى أجود بما فى يدى لمن يطلبه ، وقلبى فرح وصدرى منشرح .

الخصلة الثالثة أنى لا أستحى من شىء أعمله .

فأعجب الشيخ بالفتى ، وأسر فى نفسه، أنه إذا كان صادقاً كفر عن يمينه، ورضيه زوجاً لابنته .

ورجعا إلى حلة الشيخ ، وزفت ابنة الشيخ إلى الفتى .

ورغب الفتى فى المقام فى حلة صهره ، فرفض الشيخ وقال له « ينبغى لك أن

ترحل بزوجتك ، وتلحق بأهلك ! فقال الفتى للشيخ أجل لقد قلت حقاً .

وجهز الشيخ له حمولة ثلاثة جمال من حصر،وفرش وهدايا ثمينة وأعطاه زادثلاثة أيام ، وقال له : «إنى أعلم أنك فقير ، فخذ هذا لك ، ولا تطمع أن يصلك منى غيره .

و بعد رحيل الفتى وزوجته ، دعا الشيخ خمسين فارساً من فرسان قبيلته المغاوير ، وقال لهم : « إن ابنتى وزوجها سافرا ومعهما ثلاثة جمال ، فاتبعوهما إلى اليوم الرابع ، حيث يكون قد فرغ مامعهما من زاد ، واهجموا على الفتى هجمة صادقة ، فإذا فر هارباً فاتبعوه ، واقتلوه ، وردوا إلىّ ابنتى والجمال الثلاثة ، وإذا قاتل دفاعاً عن حريمه وماله ، فلا تمسوه بسوء ، وأتونى بهما .

وسار الفتى وزوجه نحو حلة أهله . وفرغ مامعه من زاد بعد ثلاثة أيام .

وفى اليوم الرابع بينما كان الفتى جالساً تحت شجرة يتفيأ ظلها ، و يعانى مضض الجوع هو وزوجه ، رأى فرسان حميه قادمين فى تعبئة حرب ، فنهض مسرعاً ، وأسرج فرسه وامتطاها ، واختطف حربته وترسه ، وهجم عليهم وقاتلهم قتالا شديداً ! فصاحوا به قائلين : هوى ! هوى ! أمان! نحن قوم صهرك ، وحاملون رسالة لك منه . فرحب بهم ، وقفل راجعاً معهم ملبياً دعوة حميه .

ولم يكن عند الفرسان زاد . فأمر الفتى أن يذبح لهم جمل من جماله الثلاثة .

فقالت له زوجه ، إنك لأحمق ! كيف تذبح الجمل وهو يحمل ثلث متاعنا ، ونحن فقراء ، لا نملك إلا هذه الجمال الثلاثة وما عليها !

فقال لها وهو يحاورها : إننى لم أتعود البخل ! فكيف يكون عندى جمال ، وفى صحبتى خمسون رجلا جياعاً ؟

وذبحت الجمال الثلاثة فى أيام العودة الثلاثة ، وترك ما عليها من متاع فى الفلاة .

وفى صباح اليوم الرابع وصل الجميع إلى حلة الشيخ ، وأعلمه قومه بما كان من الفتى ، فسر كثيراً . ورحب به أيما ترحيب .

وفى يوم من الأيام بينما كان الشيخ وصهره جالسين يتجاذبان أطراف الحديث سأل الفتى عن السبب فى اتصافه بالخلال الثلاث التى تقدم ذكرها .

فقال الفتى : أما أبى لا أحاف الموت ، فلأنى رأيت فى أول معركة شهدتها ، أن جبناء القبيلة ، الذين كانوا فى المؤخرة ينتفضون خوفاً ورعباً ، تصيبهم حراب الأعداء ، التى كان يزوغ عنها شجعان القبيلة وفتيانها فترديهم ، فعلمت أن أجل المرء لا يستأخر ساعة ولا يستقدم . وأن حياة الإنسان فى يد الله ، وأنه إذا كان مقدراً علينا أن نموت فى الحرب ، فلانموت حتف أنفنا . و إذا كان مقدراً علينا أن نموت حتف أنفنا فلابد أن نموت حتف أنفنا ، ولو حضنا ألف حرب وحرب .

أما إنى كريم فإنى فى الحقيقة ، لست كذلك ، لأنى أعتقد أن كل ما نملك من عند الله . فإذا ما أعطيت فإنى أعطى ما ليس لى . والذى يعطى ما ليس له ، لا يعد كريماً . ولقد أتى على حين من الدهر لم أكن كريماً ، بل كنت أعد من البخلاء المذمومين . والذى شفانى من هذا الداء ، حادث كان له أثر كبير فى حياة أسرتنا : وهو أنه فى يوم من الأيام منذ بضع سنين جاءنا سائل ، وكنا من ذوى اليسار ، نملك قطعاناً من الماشية والأغنام ، فسألنا أن نتصدق عليه ، فبهرناه ، وأسأنا معاملته ، وطردناه شر مطرد . فذهب إلى جار لنا فقير ، لا يملك إلا شاة واحدة ، فرحب الجار الفقير بالسائل المسكين . وأضافه ثلاثة أيام سوياً . وذبح له شاته الوحيدة . فسخرنا من الجار الفقير الذى حرج عما يملك من حطام الدنيا ، وأعطاه لسائل فقير مثله . ولم يمض على هذا الحادث بضع سنين ، حتى أصاب قطعاننا مرض فتك بها فتكا ذريعاً ، ولم يبق لنا بقرة ولا شاة ، وأصبحنا فقراء معدمين . ورزق الجار الفقير مالاً من حيث لا يحتسب ، وأصبح من الأثرياء المعدودين ، فعلمت أن الرزق من عند الله يؤتيه من يشاء ، و ينزعه ممن يشاء ، وأن العطاء والسخاء لا يفقران . وأن الشح والبخل لا يغنيان ، فصرت من ذلك الوقت كريماً أجود بما عندى .

مم قص عليه السبب فى أنه لا يستحى من شىء ! ! . . . . . .

والصومالى تقى ورع . ومن أشد المسلمين استمساكا بالعروة الوثقى . يقيم الصلاة فى أوقاتها . ويؤتى الزكاة . ويصوم رمضان ، ويحتفل بحلوله احتفالاً صاخباً . ويأتم بالقرآن ، ويهتدى بهديه . وهو رقيق الشعور . شديد الحس . يتأثر بما يراه أو يسمعه تأثراً عظيماً ، ويشارك غيره وجدانه ، ويحكى بعضهم أفعال غيره على الرغم منه : فإذا ما شاهد باكياً بكى لبكائه ، أو ضاحكاً ، أغرق فى الضحك من غير أن يعرف السبب الداعى للبكاء أو الضحك . وإذا ماأشار محدثه بيده اليمنى أشار بها هو كذلك ، أو لوح بيده ، لوح هو بها كذلك ، ولقد حكى أحد المصريين[1] الذين أوفدتهم الحكومة المصرية إلى الحبشة للتدريس فى مدارسها ، أنه أراد مرة أن يمزح مع صومالى رأى فى يده نقوداً ، فالتقط حجراً . ورمى به فرمى الصومالى ما فى يده من النقود تأثراً .

ويصف بعض الرحالين الغربيين الرجل الصومالى بأنه وديع ، باش ، صبور ، معتد بنفسه ، رءوف بأهله وذويه؛ عطوف على بنى وطنه ، جم الظرف ، حلو الدعابة ، ولكنه مكار (ويقصدون المكر السيىء) سريع الغضب ، قاسى القلب . وهذه صفات إن صحت كلها ،فيها بعض التناقض .

ومن خلائق الصومالى أنه يحترم المرأة ، ويقدس فيها العفة وطهارة الذيل . ويعد الحفاظ بشرفها من أقدس واجباته . ويغالى أهل دوا إحدى المدن الصومالية التجارية فلا يجيزون للأجانب غير المتزوجين البقاء فيها . ولذا كان واجباً على التجار الغرباء أن يتزوجوا من أهلها ، إذا أرادوا الإقامة فيها مدة ، طالت أو قصرت . ولا يسمح لهؤلاء أن يصطحبوا أزواجهم ، أو أولادهم أو هما معاً إذا ما رحلوا عن البلد المذكور .

---

(١) الأستاذ جورج عبد الملك ، المدرس بالمدارس الثانوية الأميرية

والمرأة الصومالية[1] رشيقة القوام ، تعنى بزينتها ، بارعة فى فن التجميل ، ولكنها عفة ، رحيضة الثوب كما قدمنا . وهى نشيطة تقوم بتربية أولادها ، وبصنع فرش بيتها كالحصر والبرد ، و بصنع الدلاء ، وما تحتاجه من آنية من الحشائش اللدنة .

والصومالى كالأعرابى ، يحافظ على ما ورثه عن آبائه وأجـــداده من عادات وتقاليد . و يعنى مثله بحفظ نسبه ، و يلقنه أبناءه ليباهوا به .

والصوماليون كالعرب قبائل مختلفة : وتنقسم كل قبيلة منها بطوناً ، والبطون أفخاذاً ، والأفخاذ أسراً . و يهيمن على شئون الأسرة مسئول يسمى العاقل .

وفى الصومال طوائف كثيرة يختلفون فى الجنس ، والملامح والصفات ، والعادات والحرفة العامة ، عن كلا الأشا والهاوية . و يعدونهم أقل مرتبة منهما ، فلا يزوجونهم بناتهم ، ولا يتزوجون منهم ، وأهم هذه الطوائف وأحراها بالذكر :

١ — المدجان :

و يمتازون بقصر قاماتهم ، يعيشون على الصيد ، وهم فى درجة الموالى عند العرب ، ينزلون جماعات حول أسر الأشا أو الهاوية لتحميهم . و يؤدون لها فى مقابل هذه الحماية بعض الخدمات كقطع الأخشاب وحمل الماء .

٢ — اليبـير :

و يحترفون صناعة الجـلد ، و يكادون يحتكرونها فى أرض الصومال ، و يعيش عدد كبـير منهم على عمل التعاويذ ، والتمائم ، و يشتغل أكثرهم بالشعوذة ، يسلبون الناس نقودهم بما يقومون به من حيـل خادعة ، و بما يأتونه من أعمال يظنها النـاس سحراً أو كرامه ، وهم أشبه الناس بحواة مصر أو مشعوذى الهند .

و يروى الصوماليون عن جد قبيلة اليبـير قصة هى العجب العجاب نجملها فيما يأتى :

---

(١) أى نساء الأشا والهاوية .

كان جد قبيلة اليبير ساحراً ماهراً ، وكان معاصراً للشيخ إسحق جد إحدى قبائل الأشا . وكان الشيخ إسحق هذا أحد أشراف حضرموت ، جاء ومعه أربعون نفراً من قومه إلى بلاد الصومال فى القرن الثالث عشر ، فطاب له العيش فيها ، واتخذها وطناً ثانياً له . ولم يلبث الشيخ طويلا حتى كثر أتباعه وشيعته . وعز بذلك جانبه . ولقد نمى إلى الشيخ إسحق خبر الساحر وأعماله المعجزة ، فدعاه إليه . فلبى الساحر دعوته ، وتواعد الرجلان جبلا معروفاً ، فوافاه الساحر على سفحه .

فسأل الشيخ الساحر : أصحيح ما بلغنى عنك ؟

فقال الساحر : نعم ، إن الذى بلغك عنى قليل من كثير !

قال الشيخ : أرنى طرفاً من أعمالك !

قال الساحر : أطلب ما تريد .

قال الشيخ : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فادخل فى هذا الجبل من هذا الجانب ، واخرج من جانبه الآخر .

قال الساحر : إن ذلك على هين .

ومشى نحو الجبل ، ثم دخل من جانب ، وخرج من جانبه الآخر .

فدهش الشيخ ، وقال لليبير الساحر : دعنى أراك تقوم بهذا العمل مرة أخرى ففعل اليبير .

ففكر الشيخ طويلا ، ثم طلب منه أن يدخل فى الجبل مرة ثالثة ويخرج منه ، فدخله الساحر ، وقبل أن يخرج منه ، رفع الشيخ كفيه ضارعاً وقال : ربى ق الناس شره أو اجعل جوف الجبل مستقره ! فأستجاب الله له ، ولم يخرج اليبير من الجبل !

و بلغ ابن اليبير ما فعل الشيخ بأبيه ، فجاءه مطالباً بديته ، فقرر الشيخ أن موت اليبير صالح عام . و ينبغى لذلك أن يشترك الصوماليون جميعاً فى دفع ديته . وقرر

أن كل صومالى يولد له ولد ، يعطى جلد عقيقته لأحد أبناء اليبير المسجون .

وتعيش قبائل اليبير إلى يومنا هذا على هذه الأسطورة التى ربما اخترعها خيال أحد أذكيائهم لابتزاز أموال الصوماليين .

و إذا ما ولد لصومالى ولد ، وجاءه يبير ، أعطاه جلد عقيقته أو ثمنه . و يدخل اليبير البيت و يقرأ بعض تعاويذه ، ثم يذهب إلى الخلاء ، فيقطع من بعض الشجيرات المعروفة لهم قطعاً صغيرة من أغصانها ، و يلفها بقطعة من الجلد ، و يخيطها ، فتصبح تميمة ، تربط على ذراع الصغير . و إذا ما جاء يبير آخر ، ورأى هذه التميمة على ذراع الصغير ، عرف أن قد سبقه أخ له ، فينصرف من غير أن ينبس ببنت شفة .

ولا يحاول أحد من الصوماليين إخفاء أبناءهم من اليبيرين لأنهم يعتقدون أن من يفعل ذلك منهم تنزل به نازلة ، وتحل به مصيبة .

ولقد دفع كثيراً من الصوماليين ، جدب أرضهم إلى أن يولوا وجوههم شطر البحر ، فغاص بعضهم فيه طلباً للؤلؤ . وركبه بعضهم فأصبحوا بحارة ماهرين ، يجوبون البحار والمحيطات تراهم فى كثير من موانىء الهند وجزيرة العرب ، و بريطانيا العظمى وأمريكا . بيد أن جل الصوماليين رعاة ينتجعون الكلأ والماء ، و يقل ترحالهم إذا كثر المطر ، فجاد المرعى ، فشبعت الجمال والأبقر والأغنام ، والمعزى فزاد اللبن .

والصوماليون البدو ماهرون فى حزم أمتعتهم وربطها وفى صنع أثاث بيوتهم وماعونها مما تنبت أرضهم من حشائش. والحصر الصومالية مضرب الأمثال فى الجودة والإتقان . وماعون بيت الصاماليين كما عون كل البدو قليل ، خفيف الحمل .

وعلى الرغم من قلة أمطار أراضى الصومال بوجه عام فإنه يتخلل كلأها شجيرات ذات جذور طويلة ترسلها إلى أعماق بعيدة ، باحثة عن الماء . فإذا ما وجدته امتصته ، وخزنته فى انتفاخات لها . وعلى هذا الماء المخزون شبعها وريها ، فى أشد أيام السنة حرارة ، وجفافاً ولهذا كانت هذه الشجيرات دائمة الاخضرار ، وكانت طعاماً شهياً

للحيوانات التى هيئتها الطبيعة للحياة فى هذه الأرض القليلة الماء والزرع .

و بلاد الصومال المطلة على البحر سهـلة منخفضة ، شديدة الحر ، وجلها أجدب ممحل ، لجفاف الهواء الذى يهب عليها من البحر[١] . وكلما بعدت عن الساحل ارتفعت وزادت أمطارها وقلت حرارتها ، وكثرت حشائشها وأشجارها ، وسهل العيش فيها . ولـكن الصوماليين على الرغم من ذلك يفضلون العيش فى السهل الساحلى الأجـدب ذى الحرارة الشديدة[٢] .

---

(١) ويعلل بعض الجغرافيين جفاف الرياح التى تهب على بلاد الصومال من المحيط الهندى ، بأن بجوار ساحلها منطقة ضيقة من المـاء درجة حرارته أقل من درجة حرارة سائر ماء المحيط الذى يجاورها ، فإذا ما مرت عليها الرياح المحملة ببخار الماء بردت ، فتكاثف بخارها ، فسقط أمطاراً على هذه الشقة الباردة ، ووصل إلى الساحل جافاً .

(٢) متوسط درجـة الحرارة فى السهل ١٦٥ فى الصباح الباكر و ٣٨٥ فى ساعات الظهر ، وهى ٥٥ره أعلى فى السهل من النجد . وفى الصومال أربعة فصول مناخية :

(١) فصل جاف جداً وحار جداً ويمتد من يناير إلى إبريل .
(٢) فصل المطر الغزير (مايو ويونية) .
(٣) فصل الحر الشديد والرياح الموسمية الجنوبية الغربية (يولية — سبتمبر)
(٤) فصل المطر القليل (أكتوبر — ديسمبر) .

أثر الاسلام فى الصوماليين

ما كاد الإسلام يظهر فى شبه جزيرة العرب ، و ينتشر فى ربوعها المختلفة ، ويصل إلى سواحلها الجنوبية ، حتى حمله تجار العرب، وبحارتهم إلى أرض الصومال ومايليها من ساحل إفريقية الشرقى ، وانتشر بين السكان الأصليين ، انتشاراً سريعاً ، لأنه صادف هوى فى أفئدتهم ، فخلقهم خلقاً جديداً ، وبث فيهم روحاً جديدة ، لم يكن لهم بها عهدٌ فشعروا بعزة ومنعة لم يتذوقوها من قبل . ولا بدع فقد أخرجهم الإسلام من ظلام الوثنية ، وأوهامها ، وشعوذة سحرتها و كهانها، إلى نور اليقين والمعرفة، ورفعهم من حضيض الهمجية إلى سماء مدنيـة دهش الأوربيون حين رأوا آثارها . وعجبوا من قيامها على سواحل القارة المظلمة .

والعرب من أعرق الأمم ديموقراطية ، والإسلام من أشـد الأديان استمساكا بأهدابها ، فأصبح العربى بعد اعتناقه دين الإسلام ديموقراطياً بطبعه ودينه، فلم يأنف أشرافهم ، حين نزحوا إلى هذه البلاد من الاختلاط بالأفريقيين والارتباط بهم، برباط الزوجية والنسب . وألف ذلك الاتصال بين قلوبهم فأصبحوا إخواناً فى السراء والضراء ليس لعربى على أفريقى فضل إلا بالتقوى ، وكان أمرهم شورى بينهم ، وفى ذلك يقول أحد الكتاب الغربيين :

« إن من أعظم مزايا الإسلام فى شرق أفريقية ، كما فى سائر البلاد الإسلامية ، تشجيع الناس جميعاً على تثقيف عقولهم ، وعلى إبداء آرائهم ، والكشف عن بدائع أفكارهم ، ومكنون أسرارهم . . . . . »

ولقد كان لكل فرد من سكان شرق أفريقية أن يحضر مجلس الشورى ليبدى رأيه ، و يناقش آراء غيره . . .

حبان : وثائق جغرافية وتاريخية وتجارية. . . إلخ

وإن تاريخ أدبهم فى أوج عظمتهم ليبين عن روح الديموقراطية العالية ، وحبهم لوطنهم، وكرههم للعسف والظلم ، وشغفهم بحريتهم، وحرصهم على استقلالهم، وتفانيهم فى الدفاع عنه ، وبذل كل مرتخص وغال فى سبيل الزود عن حياضه » . . . . . .

ولقد نشطت التجارة بين مسلمى الصومال و بقية الأمم الإسلامية الأخرى ، وكثر لهذا مالهم، فشيدوا مدنا كبيرة، تضاهى كثيراً من مدن العالم الهامة ، جمالاً وأبهة وسعة . بنوا فيها القصور الشم ، واختطوا خلالها الشوارع المنسقة أحسن تنسيق . وشيدوا فى ربوعها المساجد العظيمة ، والمخازن التجارية المتسعة ، ودور العلم الفخمة .

ورفلت تلك المدن فى حلة من البهجة والرواء ، تعجب العين ، وتستهوى النفوس ولقد ارتقى مستوى المعيشة فيها حتى أصبحت تشبه فى كثير من نواحيها ، المعيشة فى بغداد أو دمشق فى أبهج أيامهما .

واستمر الحال كذلك ، حتى اصطدم المسلمون بالبرتغاليين الذين طافوا بغربى أفريقية وجنوبها (فى القرن الخامس عشر) ووصلوا إلى شرقها ، وتغلبوا عليهم ، لتفوق أساطيلهم البحرية ، ومعداتهم الحربية . فهدموا القلاع ، وحرقوا المساجد والدور . وقتلوا خلقاً كثيرا . واضطر كثير من المسلمين إلى هجر أوطانهم ، ووغلوا فى داخل القارة المظلمة حاملين دينهم ، ولغتهم وعاداتهم ، و بذورهم المحببة إليهم فبثوها جميعاً فى البلاد التى حلوا فيها .

وهكذا كان قدوم البرتغاليين إلى شرق أفريقية ، على الرغم مما اقترفوه من جرائم وحشية ، نعمة فى ثوب نقمة .

ولم ينقطع تأثير العرب المسلمين ، والمسلمين الأفريقيين ، الذين اعتنقوا الإسلام، فرفعهم كما قدمنا مكاناً عالياً ، بقدوم الأوروبيين الآخرين، واقتسامهم أفريقية ، وذلك لاعتماد حكام المستعمرات الأوروبيين على النابهين ، النشيطين منهم (أى من المسلمين) فى حفظ النظام بين الوطنيين ، وفى شغل بعض المناصب ، للفارق العظيم بينهم و بين

الوطنيين الوثنيين ، حتى زعم المبشرون أن هؤلاء الحكام ، وبخاصة البريطانيين والألمانيين منهم ، يحابون المسلمين ، الأمر الذى ساعد على انتشار الإسلام فى أفريقية ، وعظم شأنه فيها .